FЭбЩЧϟш FЭЭХбсш ЭбFбЙш FЭFбсЭ Йϟ

ترشيد رسالة المسجد(*)

د. أبو عبد الله غلام الله

وزير الشؤون الدينية والأوقاف –الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أيها السادة الحضور السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

فإن الجزائر اليوم في أوج طموحها إلى إقامة مجتمع عصري أصيل قائم على مبادئ الحرية والعدل والتضامن في ظل الأمن والاستقرار. بعد أن صمدت وتجاوزت بحمد الله الأزمة التي عصفت بها مدة طويلة امتحنت خلالها في صبرها وثباتها وقدرتها على النهوض والتقدم.

وما من شك في أن الجزائر تحتاج من أجل ذلك إلى تضامن جميع أبنائها المخلصين الذين يضعون مصلحتها العليا دائما فوق كل اعتبار، لأنهم واعون بحجم التضحيات التي يتطلبها النهوض والتقدم بخطى ثابتة تستهدف الأمن ووحدة الأمة، قال عليه الصلاة والسلام: **﴿مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوا تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى﴾** (رواه مسلم). كما تحتاج الجزائر اليوم إلى تكامل

المكتبة الرقمية جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جميع مؤسساتها لتؤدي مهامها في استقلال وظيفي محكم ولكن في نسق عام موحد متكامل وهو يعكس كيانا متماسكا قويا؛ كيانا حضاريا قائما على دولة القانون وأخلاقيات العدل.

وما من شك كذلك في أن المسجد هو أكثر المؤسسات قدسية وفعالية في التأثير والتوجيه؛ فهو الذي يضمن تأجج قيم واحدة في الضمائر والنفوس على اختلاف المستويات والشرائح والأعمار والميول والاتجاهات في عهد التعددية السياسية والنهج الديمقراطي السليم؛ فالمسجد هو الذي يجس نبض المجتمع خمس مرات في اليوم ليقيس مدى تماسكه ووحدته وتناسقه إذ الإسلام كما هو معلوم دين توحيد ووحدة.

إن الذين أججوا نار الفتنة في الشباب الجزائري طائفتان: الأولى تتمثل فيمن انسلخوا عن الجزائر كلية منذ السبعينيات؛ بانتحالهم جنسيات أجنبية؛ ففقدوا بذلك أدنى حق في تقرير مصير الجزائر، لأنهم أصبحوا غرباء عنها جغرافيا ووطنيا.

الثانية هم أولئك الذين أخذوا عائلاتهم إلى أوروبا وتركوهم هناك، ثم يحرضون أبناء غيرهم في الجزائر ويدفعونهم إلى الهلاك، لتحقيق مآربهم القريبة والبعيدة.

لقد جاء عن أبي بكر نفيع بن الحارث الثقفي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار: قلت: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟.. قال: إنه كان حريصا على قتل صاحبه»**.

إن المسجد لا يمكن إلا أن يكون مؤسسة رائدة في المجتمع الجزائري بما أوتي من قدسية في قلوب الجزائريين، مستفيدامن الرصيد التاريخي الذي يمثل مرجعيتنا الدينية الخالدة.

فهو ينمي الحياة الروحية بين أفراد المجتمع، ولا يكتفي من الدين بمظاهره وصوره، وهو مركز إشعاع لقيمنا الروحية العالية، وهو الحامي من الذوبان في الثقافات الدخيلة كما حمى الجزائر في وقت قريب من الذوبان في ثقافة الاستعمار.

وهو ينمي الفضيلة، ويهذب الأخلاق، ويروض النفوس وهو المصدر والأساس لبث قيم المجتمع؛ كالأخوة والتسامح والتضامن والأمانة والصدق والعزة والكرامة، وهو الذي يحارب

آفة الكذب، والخيانة، والظلم، والرشوة، والفرقة، والتشتت، وأكل أموال الناس بالباطل، وفي حديث أبي داود، قال رسول الله ﷺ: **﴿ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق﴾**.

والمسجد هو الروضة، والمدرسة، والجامعة، منه تنطلق أنوار التثقيف والتربية والتعليم: تعليم أمور الدين والدنيا معا. والمعلمون والمربون هم الأئمة الذين يقتفون أثر النبي ويستلهمون سنته في تعليم الناس وتوجيههم؛ فقد جاء في سنن الترميذي أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه بتعليم اللغة العبرية والسريانية، واليوم يجب أن يوجه المسجد الناس لتعلم لغات العلم، والكمبيوتر، والانترنيت وألا يتقوقعوا على لغة واحدة، سواء كانت اللغة الوطنية أو اللغة المستعارة المهيمنة.

إذن تعلم اللغات الأجنبية واجب ديني وحضاري يفرضه العصر، والمهم هو أن يكون هذا التعلم في خدمة قيم الأمة وثقافتها، بحيث تكون اللغة العربية مثل النهر المغذي، وتكون اللغات الأجنبية الحية المفيدة بمثابة الروافد التي تمده وتدعمه، دون أن تدعي الهيمنة عليه وتعويضه.

فمن المسجد انطلق أجدادنا –وإلى وقت قريب– لتعليم الحساب، وعلم الفلك، والكيمياء، والطب، والصيدلة، ومنه انطلقت حركة ترجمة العلوم من اللغات إلى اللغة العربية، فسادت الأمة، وقادت غيرها؛ لأن المسجد كان على هدي الرسول ممتثلا قوله ﷺ: **﴿إنما بعثت معلما﴾**.

والمسجد أيضا ملتقى لفض النزاعات والخصومات، فمنه ترتفع نداءات الوحدة، والتعقل، ونبذ الفرقة، وفيه تستجيب النفوس الثائرة، والقلوب الغاضبة، لدعوة الأخوة والتسامح. وفيه ومنه يتولى الأخيار دفع المظالم، وضمان الديون، وتحمل الديات، ورأب الصدوع، اقتداء بسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وتأسيا بأجدادنا في مداشر هذا الوطن الحبيب.

والمسجد هو الأمين على عقيدة الأمة وإيمانها، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، يوجه المجتمع ليعيش دنياه بدينه وعقيدته، ولتكون حركاته وسكناته لله رب العالمين؛ يقوم بواجب النصيحة لله، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم. فهو ضميرالأمة الحي، وقلبها النابض الذي بدونه يتعرض المجتمع إلى الانزلاق من مهاوي الانحلال، والتفسخ، والإباحة، ثم الاندثار.

إن من مهام المسجد الأساسية محاربة دعاة الفتنة والشقاق، والتعصب الممقوت؛ وكل ما يمس بالوحدة المقدسة الجامعة، دينيا ووطنيا. فالجزائر كيان حضاري متماسك أصيل، معتز بتعدد نسيجه الثقافي والاجتماعي، ومتمسك بتنوعه، لأنه تنوع ثراء وتكامل لا تنوع تنافر وفرقة. كذلك كان دائما، وهكذا يظل إن شاء الله فهو سبحانه خير حفظا وهو أرحم الراحمين.

ومن البديهي أننا نعني بالمسجد الإمام الذي يضمن له أداء هذه الرسالة الدينية والوطنية الجليلة قال تعالى: ﴿ **إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين** ﴾ (التوبة الآية 18). فالإمام هو المستأمن على أخطر جانب من حياة المجتمع ألا وهو الجانب الروحي: وهو إذ يضطلع بهذه المهمة المقدسة، يصحح العقيدة ويصفي الوجدان ويهذب السلوك عندما ينير الأبصار والبصائر إلى المثل العليا والخلال الكريمة.

ومن البديهي أن اضطلاع المسجد بهذه الرسالة الدينية الوطنية الجليلة يتم انطلاقا من وعي مختلف الأبعاد التي تشكل واقع مجتمعنا ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا، وفي إطار الوضع الحضاري العام والتطور السريع الذي يشهده العالم من حولنا؛ إذ الخطوة الأولى للعلاج واقع مهزوز تتمثل في إدراك تناقضاته ومفارقاته ووعي ملابساته وخلفياته واعتبار مناحه وتضاريسه.

وانطلاقا من هذه المسلمة نقول إن المسجد في مجتمعنا الجزائري يعاني اليوم من حملتين معاديتين: أولاهما يمثلها الظاهريون النصيون الذين يلغون نعمة العقل التي وهبها الله سبحانه للإنسان ليتدبر ويجتهد للوصول إلى الفهم الصحيح السليم للدين ومقاصد شريعته وفق ما تمليه سنة التطور والتغير والتجديد. هؤلاء الظاهريون الجدد يدعون إلى التقليد الأعمى لتيار الجمود الذي يحصر الإسلام في مظاهر وأشكال، وتعريفات فقهية نظرية بعيدة عن فقه الواقع، ويحصر الشريعة في قائمة طويلة مما يجوز وما لا يجوز، ويحصر السنة في التشبث بنمط العيش الذي كان عليه المسلمون الأولون بجزئياته وتفاصيله دون أدنى تمييز بين ما هو جوهر الدين، خالد بخلوده، وما هو مجرد نمط من أنماط العيش أملته ظروف بيئية اجتماعية واقتصادية وحضاريةيزول بزوال هذه الظروف، وهذا ما يحتم على العلماء توظيف العقل واتباع أصول النظر العلمي، قال تعالى: ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا**﴾ (سورة الإسراء الآية 36). هؤلاء الظاهريون يدعون كذلك إلى تجفيف الينابيع الروحية للدين، التي غذت وجدان المجتمع الجزائري على مر القرون بفضل التراث الروحي الزاخر الذي تركه أبناء هذه الأرض الطيبة من العلماء الصالحين، وأولياء الله الملهمين؛ الذين لا تخلو منهم قرية أو دشرة أو مدينة.

الحملة الثانية المعادية للمسجد يمثلها دعاة التغريب واللائكية، ممن تكونوا تكوينا بعيدا عن المناخ الحضاري الإسلامي الأصيل، وتأثروا بمنهجية التفكير الغربي القائمة على نظرة خاصة إلى الكون والإنسان والحياة، نظرة محكومة بثنائية الزمني والروحي، العقل والوجدان، الوسائل والغايات، الدين والدولة وما إلى ذلك، مما أفرزه انحراف الكنيسة التي أهانت العقل، واحتكرت العلم، وباركت الجمود، وعارضت الفطرة، وشلت الحركة والإبداع.

الإسلام لا يعرف مثل هذه الإشكاليات؛ لأنه نظام رباني شامل كامل لتصريف شؤون الأفراد والجماعات والأمم وتحقيق السعادة في الدارين، قال رسول الله ﷺ ﴿**خلقت الدنيا لكم وإنكم خلقتم للآخرة**﴾. والإسلام لا يعرف مثل هذه الثنائيات، لأنه يضع المقاصد

والغايات، ويترك لعقل الإنسان بعد ذلك التفكير والتدبير والاجتهاد، ليضع النظم والقوانين والنظريات التي يتوصل إليها بفعل الممارسة والتجربة والتفاعل مع الحياة المتطورة، والانفتاح السليم على الغير والاستفادة مما عنده؛ إذ الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها. الإسلام رسالة حضارية إنسانية عالمية؛ لأنه لم يختصه الله سبحانه يقوم دون سواهم، فهو دين الإنسانية كلها، لم يرد فيه يا أيها العرب، أو يا أيها الروم، أو يا أيها الفرس، بل ورد فيه قوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ (سورة الحجرات الآية 13). وهو عقيدة وشريعة، مثل ومبادئ وقيم، وهو كذلك أنس وظرف ولياقة وذوق وفن وجمال.

فهو دين إنساني عالمي، قال تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا**﴾ (سورة سبأ الآية 28). هؤلاء التغريبيون يريدون اليوم أن يحشروا المسجد في عملية مناهضة النظام الدستوري، وهذا يفضح تناقض فلسفتهم في النظر إلى مؤسسة المسجد ووظيفتها في مجتمع عريق أصيل كالمجتمع الجزائري.

إن الإسلام يرفض التفكير الفوضوي المتخلف الذي يعادي المؤسسات القائمة بالتشريع؛ والإسلام يقيم كل شيء على العلم والنظام، وأما الفوضى فإنما قرينة الجهل والتخلف بل والتوحش. وقديما قال الشاعر

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا

وهؤلاء لا ينحصر ضررهم في الدعوة إلى اللائكية التي لا يمكن أبدا أن تروج في الجزائر؛ لأنها عضو دخيل على جسم صحيح متناسق، يرفضه ويلفظه؛ وإنما يتمثل ضررهم الأكبر في دعوتهم الملحة المحمومة إلى أحادية اللغة (الفرنسية) لكي يجعلوا من الجزائر رهينة حضارية، فهي محتجزة مسجونة في لغة واحدة مفروضة من دون سائر لغات العالم المقرونة اليوم بالتقدم العلمي والتكنولوجي.

FЭбЩЧϟШ FЭЭХбсШ ЭбFбЙШ FЭFбсЭ Йϟ

إن التشبث بأحادية اللغة جعل الجزائر سجينة في عصر التفتح والتطور، وذلك في مختلف المجالات الحيوية؛ ففي الثقافة أصبحنا ندور في محيط ضيق جدا، ونعيش على فتات ما أبدع بهذه اللغة لا غير، فنحرم من العطاء العلمي والفكري والفني والثقافي الإنساني المدون بغيرها. كما أن هذه اللغة أحدثت لنا قطيعة مع تراثنا الوطني في بعدية العربي والأمازيغي الذي صاغته لغة القرآن، التي تبناها الجزائريون لغة للعلم والحضارة منذ الفتح الإسلامي الأول.

في مجال الإدارة كذلك تتجلى آثار أحادية اللغة في التشبث بالموروث عن الإدارة الاستعمارية من أنماط التسيير، والعزلة التامة عن التجارب المتطورة الرائدة من العالم. فأصبحت فرنسا في نظر هؤلاء أشبه بقبيلة غزية القديمة التي قال فيها أحد الشعراء المتعصبين لها تعصبا أعمى.

وما أنا من غزية إن غوت .... غويت وإن ترشد غزية أرشد

في التربية، أثرت وحدانية اللغة في الإطار الموجه وتلوين فلسفته في النظر إلى العملية التربوية من زاوية واحدة، محكومة بما تفرضه هذه اللغة من قيم، من خلال اتباع مناهجها ونظمها وطرقها؛ فمن المعروف أن الغزو الثقافي ينشط في مجالات حساسة عديدة، لكن أخطرها هي تلك التي تبدو في الظاهر مجردة من كل غرض، بعيدة عن كل مصلحة، مثل مجال التربية والتعليم، إن هذا المجال بالذات ينبغي تحصينه وتعزيزه ليظل في منأى عن كل تأثير، لأنه يمثل شخصية الأمة ويبني مستقبل أجيالها، فلابد من ربطه دائما بمقومات شخصية هذه الأمة، وفي مقدمتها الدين واللغة، ولقد عبر عن ذلك أحسن تعبير الإمام ابن باديس عندما قال: **"لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم، ولن يصلح هذا التعليم إلا إذا رجعنا به إلى التعليم النبوي في شكله وموضوعه"** فقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: **﴿إنما بعثت معلما﴾**.

في مجال التشريع والقانون وفي الدبلوماسية تتجلى كذلك سلبيات أحادية اللغة في حرمان الجزائر من الاطلاع على ما عند الغير، إلى جانب تهميش العربية، اللغة الوطنية

والرسمية، المقوم الأساسي للأمة. ولعل أوضح مثال للنتائج السلبية المنجرة عن الـــدوران في فلك لغة واحدة، هو مجال الدبلوماسية، فلقد حرم هذا التكوين الأحادي لغة الجزائر حتى من تمتين الروابط بينها وبين الكيان العربي الإسلامي، باعتبارها جزءا منه، ومن تعزيز الجســـور الممتدة طبيعيا منذ قرون بينها وبين المشرق العربي، كل ذلك لأن اللغة الأساسية في تكويـــن دبلوماسيينا هي الفرنسية وحدها.

إن هاتين الحملتين المعاديتين للمسجد: حملة الظاهريين النصيين المتحجرين والتغريبيـــين اللائكيين، ينبغي أن يقوم النشاط المسجدي بتوعية المواطن بخطرهما؛ فلا يتأثر بهمـــا مـــهما تتعدد أساليبهما في محاولة الاستمالة والتأثير والإقناع، كل ذلك بالحكمة والموعظة الحســـنة والجدال بالتي هي أحسن.

إن أعداء الجزائر متربصون، يستغلون كل ثغرة وضعف لمحاولة إثارة الفتنة بين صفـــوف أبنائها، لضرب وحدتها الدينية والوطنية. ولعل الأحداث الأليمة التي عاشتها بعض ولايـــات الوطن خير دليل على ذلك.

فمن الذي أجج الفتنة بإثارة مشاعر التعصب البغيض في نفوس الشباب؟

ومن حرض هؤلاء الشباب على العنف والتخريب ومن عرضهم للهلاك؟

ثم فمن الرابح أصلا من هذه المأساة، فالمحرض جزائري والمخرب جزائـــري والقـــاتل جزائري والمقتول جزائري؟